فى وصل ما انقطع

الشيخ حسنى

-١-

زمان، كنت فكرت فى كتابة جزء ثان من رواية (مالك الحزين) وشجعنى بعض الأصدقاء على ذلك، إلا أننى بعد عرض (الكيت كات) خشيت أن يقال إننى أردت استثمار النجاح الذى صادفه الفيلم، هكذا استبعدت الفكرة تماما، وحسنا فعلت.

إلا أننى وقد مضت السنون لم أستطع أن أمنع نفسى من تتبع مصائر بعض الشخصيات الحقيقية التى اعتمدت عليها فى كتابة هذه الرواية، والتى عرفها المشاهد على نطاق أوسع بعد مشاهدة الفيلم. من أمثال الشيخ حسنى الضرير والهرم بائع المخدرات وفاطمة ويوسف وتاجر الطيور وغيرهم. فهذه شخوص لها أساس فى الواقع وملامح من أناس عرفتهم وعشت بينهم.

وليس معنى ذلك أن كاتبًا يمكنه أن ينقل رجلا من الشارع إلى الورق لأن هذا غير ممكن عمليا، كما أن أحدا لا يستطيع أن يخترع إنسانا، كل ما يستطيعه هو أن يتكئ على ملمح أو آخر يعينه على البدء، أما الشخصية فهى لا تتكون أبدا إلا عبر ردود أفعالها ثم أفعالها

تجـاه مـا يصـادفـهـا داخل النص من مـواقف وأحـوال، هكذا تتـضح ملامحها وتنمو كائنا لم يكن حتى فى الحسبان، وتبتعد الشقة بينها وبين الأصل الذى اعتـمدت عليه. لقد صـار شـخصـا لا ينطق إلا بلسانه، ومعذرة لهذا اللغو.

لقد وجدتنى راغبا فى أن أحدثك عن ما جرى لهؤلاء الناس الذين على أرض الواقع. ما جرى للشيخ حسنى الذى جسده الفنان محمود عبد العزيز، وسأعود إليه فى مرة لاحقة. تاجر الطيور الذى اشترى مقهى عوض الله ليهدمها. فاطمة. يوسف. عبد الله. الهرم بائع المخدرات الذى جسده الفنان الراحل نجاح الموجى، وهو بالمناسبة بائع المخدرات الوحيد فى المنطقة الذى لم أكن رأيته وإن استوقفنى اسمه، ولقد حدث مرة أثناء سهرى فى بيت أحد الأصدقاء على مقربة من منزل الأسرة فى الكيت كات، وكان الفجر اقترب، أن سمعت صوتا عاليا ينادى مكررا:

«الصلاة يا مؤمنين، الصلاة خير من النوم».

وسألنى هذا الصديق:

«تعرف مين ده؟».

قلت:

«لأ».

قال:

«ده الهرم بياع الحشيش».

ثم أخبرنى أن الهرم أثناء جلوسه مع زوجته ليلا، وكان خرج حديثا

من الحبس، وكانت هى شابة، بنت بلد وجميلة، حدث أن وضعت رأسها على كتفه وارتاحت قليلا وماتت. وهو انتابه الهلع العظيم لشهور لم يغادر فيها البيت، ثم أطلق لحيته، ووضع عمامة كبيرة، وأمسك بعصا طويلة وغليظة، وصار يغادر البيت قبل صلاة الفجر، يجوب حوارى إمبابة لا يفوته يوم، يدق الأرض بعصاه كما يدق الأبواب صائحا:

«الصلاة خير من النوم».

وما إن تبدأ الصلاة حتى يعود إلى البيت.

لا يصلى، ولا يدخل الجامع أبدا.

أما المعلم تاجر الطيور، فهو بعدما اشترى المقهى وهدمها وبنى مكانها عمارة كبيرة، ثم بعدما اشترى الحارة وفعل فيها نفس الشىء، بعدما انتهى من ذلك كله أصابه المرض العضال فى حنجرته، ثم علمت من الأصدقاء أنه استأجر مضيفة تجيد الإنجليزية رافقته إلى لندن حيث ركبوا فى رقبته ثقبا معدنيا للتنفس، (من أخبرنى كان يقصد إعلامى بالمبلغ الضخم الذى تقاضته المضيفة) بعد ذلك بزمن افتقدته وسألت عنه، وعلمت أنه لما كان قاعدا بالجلباب والمعطف، يتابع عماله وهم يشتغلون بين أقفاص الطيور، ويعملون فيها تقليبا ووزنا وذبحا ونتفا وخلافه، حدث أن الزغب المتطاير فى أجواء المكان سد هذه الصفارة،

والمعلم اختنق فى مقعده على باب الدكان، ومات.

والحقيقة، أنا استغربت.

- ٢ -

بعدما كتبت ما كتبت، أخبرنى صديق قديم من إمبابة يدعى عادل الشرباتى أن الهرم قبل أن يحدث له ما حدث، كان اتجه بعد عرض الكيت كات إلى شارع دوبريه حيث الشركة المنتجة للفيلم ودق الباب، وعندما فتح له أحدهم قال:

«أنا الهرم».

والرجل الذى لم يفهم استغرب وقال:

«هرم إيه ؟».

وهو قال:

«أنا الهرم اللى اسمه طلع فى الفيلم».

ثم أخبرنى أن الهرم قال له بأن الرجل فى الشركة انبسط منه وأعطاه عشرين جنيها وأغلق وراءه الباب. وأضاف بأنه سأل عنى شخصيا ليرى إن كنت سأدفع له شيئا عن هذا الفيلم، والشرباتى أخبره بأن ينسى هذا الأمر تماما لأننى مجرد مؤلف فضلا عن كونى من أبناء إمبابة. وأنا شكرت صنيعه وأغلق هذا الباب، لأننى أريد الكلام ولو قليلا عن الشيخ حسنى نفسه.

والشيخ حسنى كما قلت كنت اعتمدت فى تقديمه على شخصية حقيقية من إمبابة. كان صديقًا وكان له اسما آخر لن أذكره هنا لاعتبار أو أكثر. وعلى أية حال فإن الفيلم ما إن عرض حتى تجاهلت إمبابة اسمه الأصلى وصار معروفا بين الناس باسم الشيخ حسنى فعلا. وهو

خريج معهد الموسيقى العربية وكان أول دفعته فى العام ١٩٣٦ . حجة فى عبد الوهاب ويقول لك إن هذه الأغنية أذيعت الساعة السادسة مساء يوم الخميس سنة ٣٧ فى عيد ميلاد ابن الأمير عمر طوسون مثلا . عين مدرسا للموسيقى عقب تخرجه إلا أن إدمانه للمسائل ورحيل زوجته الأولى التى كانت تعتنى بمظهره جعلهم يطلبون منه أن لا يقترب من المدرسة وأن يرسل أحدا لصرف راتبه أول كل شهر . تعرفت عليه بواسطة صديق موهوب جدا اسمه محمد نويتو كان رساما وصاحب صوت جميل ومن أرهف من تعاملوا مع آلة العود . ولأن الضرير لا فرق عنده بين الليل والنهار فلقد كان الشيخ يأتى لزيارتى فى الثالثة صباحا مثلا . كان يتعلق بذراعى أثناء تجوالنا على شاطئ النهر آخر الليل وهو يرتدى البيجامة التى لا يخلعها مطلقا والحذاء الجاف الذى من دون رباط وكان ذكيا جدا ويقول لى :

«هات سيجارة» .

وأعطيه سيجارة يدخنها ويقول :

«هات سيجارة» .

أعطيه أخرى يدخنها ويقول :

«هات سيجارة» .

وعندما ألتفت إليه يقول :

«إنت بتبص لى كده ليه ؟» .

وعندما كنا نذهب إلى بيت أو آخر كان يهمس لى ما إن نجلس :

«قول لهم يعملوا الشاى» .

وأنا لا أقول شيئا لأن الشاى كان يأتى وحده.

وعندما ننتهى من شربه يهمس لى:

«اسألهم إذا كان عندهم بن».

وأنا أتجاهل ما سمعته.

كنا نسهر ليلا. نويتو يعزف ويغنى والشيخ أيضا. الشيخ ضرباته عنيفة جدا على العود وصوته بالغ الرداءة إلا أن دقة الأداء المتناهية إذ يغنى تجعله آسرا. المرة الوحيدة التى التقيت فيها ببليغ حمدى كان أتى برفقة أحد أصدقائه لكى يستمع إلى «عندما يأتى المساء» لعبد الوهاب من الشيخ تحديدا. وكان الشيخ يؤدى ورفيق بليغ يدون النوتة. وكان ذكاؤه وحساسيته البالغة وحكاياته أمرا شائعا ومعروفا فى إمبابة لذلك لم أكتب عنها فى الرواية شيئا. لم أكن على استعداد أن أعيد على مسامع الناس تلك الحكايات التى يعرفونها خاصة وهم قرائى الوحيدين الذين كنت أعرفهم، لذلك استبعدت الكثير مما كان يتعلق بحياته الحقيقية.

- ٣ -

يحكى الشيخ حسنى الحقيقى، مثلا، أن خالته كانت عرضت عليه أن تزوجه ابنتها بعد رحيل زوجته الأولى أم الأولاد. خالته لم تخبره أن هذه الابنة لا ترى إلا بالكاد. هى اعتمدت على أن من يرى شيئا أفضل ممن لا يرى على الإطلاق. حدثنى أنه بعد الزواج بدأ يشك بأن فى الأمر شيئا غريبا ولكنه لم يتصور أبدا أن عروسه كانت شبه عاجزة عن النظر هى الأخرى.

كـان يمـتلك بدلتـين من أيام زوجـتـه الأولى، واحـدة بنى سـادة والأخرى رمادية مخططة. وهو عندما كـان يطلب منها البدلة البنى تأتيه بالرمـادى. كـان يعـرف ذلك لأنه يتـحسس القـماش بأصـابعـه ويعـرف البدلة المقلمة من ملمسها. وكـان سلوكها هذا يدهشه جدا. ثم إنه رجل صاحب مزاج. وقبل أن أعرفه كانت شاعت حكاية فى إمبابة تقول بأن مواطنا عرض عليه أثناء جلوسهم بمقهى عوض الله نصف قرش كـان اشتراه لكى يحكم له على مدى جودة الصنف، وأن الشيخ تشممه بأنفه لبـرهة ثم ألقى به فـجأة فى فـمه المفـتوح دائمـا وانتـهى الأمر. مـصدر الدهشة أن هذه الكمية فيما يقولون كانت كـافية لكى تقتل فيلا لا أقل. وهو عندما يتناول مثل هذه المسائل يحب أن يحتسى الشـاى كل فترة لكى تسخن وتشتغل معه.

يقول إنه بعد الزواج كان يطلب من عروسه أن تعد له كوب الشاى، وهى كـانت تقـول حاضـر ولا تعمـل. ويخبـرنى أنه كـان ينزل لأمه فى الدور الأول لأنها كـانت حية ويشكو لها هذا الأمر، وأن أمه كـانت تعد له الشاى بنفسها وتخبره بأنها ما زالت عروسة جديدة:

«بتدلع شوية وبكرة تعمل».

وفى أحـد الأيام كـانا يجلسـان ويتـحدثان، وهـو رأى أنهـا صـارت عروسة قديمة الآن وطلب الشاى وهى تلكأت وقالت:

«كمان شوية».

ولكنه أصر على أن تعمل الشاى فورا وليس:

«كمان شوية».

وقبض على كتفيها وجعلها تجلس على الكليم ووضع الوابور أمامها وأعطاها الكبريت .

وهى حكت الكبريت وأشعلت النيران فى داير السرير بدلا من الوابور ، والنار شبت فى هذا الداير القماش وامتدت إلى الفرش وبقية الحجرة .

هو أحس بسخونة زائدة ولكنه لم يتصور . وهى أحست بالولعة وقامت تجرى وهى تصوت والدنيا انقلبت ولولا ستر ربنا كان البيت كله احترق .

يقول إنه فهم فى تلك اللحظة أنها زى حالاته إلا قليلا ، واستطاع أن يجد تفسيرا لمسألة الخلط بين البدلة البنى والرمادى . وتذكر أنهم عندما كانوا يخرجون للفسحة أو الذهاب إلى السينما أيام الخطوبة كانت أمها التى هى خالته تصر على مرافقتهما وتسير إلى جوار ابنتها وهى تسبقها قليلا سواء ناحية اليمين أو الشمال ، وتأكد أنها كانت تفعل ذلك لكى تنبهها إلى الطريق وتجعلها تتفادى العربات . وقال :

«علشان كده طلقتها» .

وأنا استنكرت ذلك بشدة ، وتحدثت معه بلا حرج وقلت له ما معناه إن من كان فى مثل حالته ، ولا مؤاخذة ، لا بد وأن يكون من أكثر الناس تقديرا لظروفها . وهو ابتسم وقال لى بأن هذا الكلام غير صحيح ؛ لأنه أولا ليس مثل الشيخ عباس الذى يقوم بسلق الكرنب وإعداد الخلطة بنفسه ويحوله إلى محشى ويضعه أمامه فى الطبق . وهو ثانيا بحاجة لمن تخدمه وترعاه . ثم أضاف بأنه تحدث معها قبل الطلاق وأخبرها بأنه لو كانت لديه إمكانيات كان تزوج واحدة مبصرة تخدمه وتخدمها . وهو على العموم لم يتزوج مرة أخرى .

- ٤ -

عندما كان يطلب سيجارة يطفئها ويطلب غيرها ويكرر ذلك خمس أو ست مرات متعاقبة وألتفت إليه ويقول مستنكرا :

«إنت بتبص لى كده ليه؟» .

لم أكن أسأله :

«إنت عرفت ازاى؟» .

لأننى كنت أشعر بالحرج . وهو كان ، بالطبع ، يتعرف على أى أحد بمجرد أن يمسك بيده ، وفى بعض الأحيان كان يتعرف على واحد من رائحته . كان يعرف إمبابة ويتحرك فى شوارعها وحواريها ودروبها ويحفظ نواصيها وأرصفتها وأشجارها وأحجارها المستقرة . وفى أى وقت من الليل يحتاج أحد الرفاق إلى شيء من الممنوعات كان يستعين بالشيخ الضرير لكى يقوده عبر الأزقة والدروب فى عمق المدينة حتى يتوقف فى (الحكورة) عند بيت صغير شبه خفى ، ويدق على نافذته الأرضية المغلقة .

وعندما يأتى الصوت من الداخل :

«مين؟» .

يقول :

«أنا يا واد» .

ثم يلتفت إلى رفيقه ويقول :

«طلّع الفلوس» .

وكان يعيش وحيدا . حجرته ضيقة وخالية من أى فرش وممتلئة بقشر البرتقال الجاف وبواكى المعسل الخالية والحصيرة . البيت قديم والسلم من دون سور وأنا أصعده بصعوبة .

حتى ذلك الحين لم أكن فكرت أنه سوف يكون موضوعا لكتابة . وعندما كنا نمشى على شاطئ النهر قبل الفجر بقليل مررنا بعربة نقل بمقطورة واقفة ومغطاة بمشمع ، وبعدما عبرناها توقف والتفت إليها وقال :

«العربية دى واقفة هنا بتعمل إيه ؟» .

وأنا قلت لا بد وأنها راكنة حتى طلوع النهار ، ثم انتبهت لما حدث .

فى تلك المرة أصررت على سؤاله ، وقال إن الهواء الخفيف انقطع وهو قاس المسافة الخالية دائما وعرف أنها عربة .

فى تلك الليلة فكرت فيه كموضوع .

وكان أصابه الاكتئاب ولم أعد أراه إلا لماما .

عندما صدرت «مالك الحزين» قرأها له عادل الشرباتى المدير العام الذى حصل على إجازة من دون مرتب وجلس وراء عربة الكنافة والبسبوسة الخاصة بوالده الراحل أمام منزله فى شارع السوق والشيخ اختفى .

علمت أن الأحوال تدهورت به وأنه اتخذ من بولاق أبو العلا منطقة للوقوف ؛ لأنها بعيدة عمن يعرفونه وقريبة من تجار الكيف الذين كان يقصدهم كلما تيسر . أخبرنى الشرباتى أنه بعدما مرض مرضا شديدا

جاء ابنه الذى صار رجلا الآن وأخذه عنده فى المنيرة. وفى اليوم الذى حملوه فى طريقهم إلى المستشفى تمنى على ابنه أن يجعل التاكسى يخترق شارع السوق الطويل الذى قضى به عمره كله. وهو نام على كنبة التاكسى الخلفية وطلب أن ينبهونه عندما يصلون أول الشارع. وعندما فعلوا تحامل على نفسه وأخرج نصفه العلوى من نافذة العربة لعل أحدا من أصدقائه القدامى يلمحه. وعندما وصل التاكسى أمام عادل الشرباتى أول المساء صاح عليه:

«إيه يا مولانا ؟» .

وأطبق الشيخ على يديه صارخًا:

«إنت مين ؟» .

الشرباتى ذهل ولم يستبشر خيرا لأن الشيخ لم يتعرف عليه من صوته ولا قبضة يده وقال:

«الله. أنا عادل» .

وقال هو:

«يا عادل أنا عيان ورايح المستشفى. إبقى قول للناس بقى» .

واستلقى بجسده الضئيل على الأريكة الخلفية.

والشيخ حسنى مات، وبقيت الصورة.

هضبة المقطم. ٢٠٠٦